



المرجع الديني
السيّد عبد الأعلى
السبزوري قدس سره

التوبة

تدارك زوال

الفطرة

التذلل لدى المعبود الحقيقي الجامع لجميع الكمالات غير المتناهية، والاعتراف بالقصور والتقصير عنده، محبوبان لديه عزّ وجلّ. والعبودية التي هي غاية مقامات العارفين وأولياء الله المخلصين، متقومة بهما.

لا ريب في تحقّق الارتباط بين الممكن والواجب، كالارتباط بين المعلول مع العلة التامة، والمخلوق مع الخالق، والأثر مع المؤثر، بلا فرق في ذلك بين المجرّدات والماديات، والأفلاك والأفلاك؛ فإنّ جميعها متعلّقة بالإرادة الأزلية حدوثاً وبقاءً، وبزوالها ينعدم جميع ما سوى الله تعالى، ولا يبقى إلّا وجهه الواحد القهار.

والإنسان يرتبط مع الله، جلّ جلاله، بارتباطين:

الأول: الارتباط العام القهريّ، الذي يعمّ جميع الخلق وما سواه تعالى.

الثاني: الارتباط الاختياريّ، أي: الطاعة والامتثال والانقياد، وهذا هو الأصل والأساس في علاقة الإنسان مع الله عزّ وجلّ، فإذا زال يبقى الارتباط الأول، وهو يعمّ الجميع -الحيوان والجماد- على حدّ سواء.

والإنسانية إنّما تظهر في الارتباط الثاني، ولا تزول إلّا بالطغيان والعصيان، وحينئذٍ لا بدّ من التوبة والرجوع إلى الله تعالى، ليعود الارتباط إلى ما كان عليه وتستكمل به الإنسانية، وتزول الشقاوة وتحلّ محلّها السعادة الأبدية. إذ القرب من ينبوع الحكمة والعلم والكمال المطلق يوجب بلوغ الإنسانية إلى الكمال، ويتمّ به العقل والدين، كما أنّ البعد عنه يوجب زوال ذلك كلّ.

وعليه، فإنّ للتوبة الحقيقية دخلاً في استكمال الإنسانية والدين والعقل، ويكفي في فضلها أنّ فيها يتجلّى المعبود الأعظم للتائبين، بقوله عزّ وجلّ: ﴿.. وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

فالعبد يعترف بما هو من زبي العبودية، والمعبود يظهر بما هو من شأن الربوبية الواقعية، ولذا ترى أن أحبّ حالات المتعبدين إلى الله تعالى هي حالة الاعتراف بالتقصير، كما هو واضح في الدعوات الماثورة عن الأئمة الأطهار عليهم السلام لا سيّما الصحيفة المملوكية السجادية على صاحبها ومنشئها آلاف التحية والسلام...

* (مواهب الرحمن: 7/ 393-394)